سينما العنف

مصنع احلام.. أم كوابيس؟!

عباس عباس

حتى لو اتفقنا مع سانت جون بيرس بان (ثمة مبدأ عنف كاسح يتحكم باخلاقنا)... او آمنا بان حضور العنف في واقعنا صار شاملاً، وهو يتخذ صورا واشكالا عدة.. فان هذا لايجعل من طغيان العنف على وسائل الاتصال مبررا.. والسينما باعتبارها الفن (أو الآلة) الاكثر فعالية في تصوير (اخلاقنا)، فانها طالما تناولت العنف بشكل وبآخر، ومايعنينا هنا هو العنف المكشوف (حروب، قتل، اعتداء) لا العنف الخفي (تخريب الوعي، تعميم السطحية والابتذال).. وقد اتسع الاهتمام بالعنف في السينما الى حد كبير في العقدين الاخيرين، أذ تلمس هجمة (لامعقولة) للوحشية اخذت تتزايد، وبشكل مقلق مؤخرا، اذ هيمن العنف على المشهد السينمائي وتحولت الشاشة البيضاء من جرائه الى حمراء، حيث لاتعد المشاهد واقعية مالم نر الدماء تغطي الشاشة ونكاد نحس برائحتها اللزجة، ولانقتنع بالموت مالم نر اجزاء المخ تتطاير متناثرة على الشاشة (على وجوهنا). هذه المباشرة الفجة، وهذا الفائض من العنف، واللذان يجعلان من الفلم شبيها بنشرة الاخبار، يقضيان على فلسفة السينما وجماليتها، ويجردان الفلم من خياله ويلغيان فيه صفة الفن.

ولان مصنع الاحلام-كما يقول أندريه مالرو-يعيش عاجلاً أم اجلاً من وسيلتيه الاكثر فعالية: الجنس والدم، فان شاشة السينما تبقى مصدرا لكل انواع العنف، وتطغى على مواضيعها صور من عالم تسود فيه الوحشية ويهيمن الدم، واحدى وسيلتيه، وهو العنف، صار يستخدم بحرية تامة، وكثيرا ماحل محل الجنس في المرات التي يتضاءل فيها دور الجنس في السينما، اذ غالبا مايحدث ان تتجاوزه الموضة او تقيده ضرورات الحظر التي تفرضها امور التوزيع والانتشار، بينما لاتضعف قوة العنف، وتتعدد صوره وتتوصل التقنية المتطورة جدا الى تقديمه باشكال جديدة على الشاشة، حيث تتكاتف افضل العقول في صناعة الفلم لاخراجه بافضل درجة من الاتقان، ولم يعد مهما ان يكون للعنف مسوغ درامي، وانما اصبح مطلوبا لذاته، فهو لا يخدم غرضا دراميا، ومشاهده غير مبررة في سياق الفلم، وغالبا مايكون الخط القصصي للفلم خاضعا للعنف الذي يجري فيه.

لاينكر ان العنف موجود في حياتنا، لكنه بالتأكيد لايوازي العنف الموجود على الشاشة (التفاصيل السادية هي التي نتحدث عنها هنا.. عندما يلتذ شخص بأكل مخ شخص اخر وهو حي: ويدعو فيما بعد طفلا الى مشاركته وجبته!). كما حدث في فيلم (هانيبال) ومهما يبدو ان هذه السينما هي نتاج عالمنا الذي يسوده العنف، ومهما يكن واقعيا بان الاقبال على هذا النوع من الافلام بسبب مشاهد العنف التي تشبع حاجة مكبوتة او عواطف ورغبات مباشرة في نفس الفرد (حيث تجد لها في النفس البشرية تجانسا خفيا).. فان نتائج هذا التوجه خطيرة، وخطر العنف في السينما مرتهن بانتشار الفلم، ودخوله الى كل بيت مع التلفزيون والفديو (تظهر الاحصاءات ان كل مراهق امريكي بلغ السابعة عشرة من عمره يكون قد شاهد ١٨ ألف جريمة قتل على الشاشة). والصور العنيفة من السهل قبولها طالما يكون المتفرج مراقبا فقط (بعيداً عنها)، ويفسر هيتشكوك ميل الجمهور لهذا النوع حيث يقول: (لا شيء امتع من شعور الخوف الناتج عن مطالعة او مشهد عندما يكون صاحب هذا الشعور نفسه جالساً في مقعد مريح حيث لايجازف بشيء). لكن ماذا عن الشعور بالالفة، حين يدمن هذا المتفرج مشاهدة هذا العنف، وبالنسبة لصناع الفلم فالامر يخضع لقانون قديم، يعبر عن العقلية الصناعية الغربية-كما يرى ماكلوهان-التي كانت الاطار لكل مايطلق عليه اسم المجتمع الاستهلاكي، وجوهر هذا القانون، ان محرك هذا المجتمع هو (التشويق) والعنف جدير دائما بخلق التشويق.. والمبالغة في اظهاره تؤدي الى اعتياد امر العنف لدى المتفرج، وتقبله على انه آفة المجتمعات الحديثة وهي محاولة لـ(ترويض) الجموع كي تتعلق بهذا النوع فتطلبه دائما، وهكذا وبتواتر مثل هذه المواضيع ينشأ مايشبه الالفة بين هذا النوع من الافلام والجمهور، وبهذا المنطق الاستهلاكي تزايدت نسبة هذه الافلام بسرعة مخيفة، وبدت كانها مهيأة لمزاج المجتمع.

تاريخ العنف في السينما يجعلنا نعتقد بأن العنف صناعة امريكية، فان ماضي هوليوود يقدم دليلا واضحا على الطريقة التي استسلم بها المنتجون الى هذه الموضوعات، وافلام الوسترن ورجال العصابات (الغانغستر) يعتبران من اعظم اختراعات هوليوود، وليس عرضا ان هذين الشكلين الامريكيين الخالصين يكشفان عن اهتمام بالعنف.

وفي السنوات الاخيرة- في الثمانينيات بالاخص- ومع التحول الواضح الى سينما الابهار البصري وافلام الميزانيات الضخمة، اصبحت هوليوود آلة هائلة لانتاج العنف، ولان امريكا تميل الى فعل كل شيء بطريقة اكبر، فانها تجاوزت الحدود، وغدت شاشة هوليوود ميدانا بشعا تصور فيه كل اشكال الوحشية والقسوة، وباركت اكاديمية السينما الامريكية هذا التوجه، حيث منحت معظم جوائزها-في السنوات الاخيرة-الى افلام سيطر فيها العنف الخالص، وجرفت الموجة اسماء كبيرة امثال سكورسيزي وسبيلبرغ، ولان المبدأ الاستهلاكي نفسه مازال قائما، فان الاندفاع نحو انتاج المزيد من هذه الافلام لم يتوقف، حتى مع اختفاء دافع التعبير عن مزاج او رغبات الجمهور (كشف استطلاع في امريكا ان ٨٢ في المئة من الامريكيين اشتكوا من وجود عنف زائد في السينما).

لا شك في ان العنف هو أبرز وجوه حياتنا التي تعيش الان اضطرابها المأساوي، ولسنا ضد ان تعكس السينما هذا الجانب من الحياة، لكننا ضد الطريقة التي تساء بها معاملة العنف، ونرى ان المخيلة الشريرة، التي تصنع او (تبدع) هذا الكم من العنف والوحشية تشتط بعيدا اذ تحول السينما الى (كولسيوم) تعرض فيه انواعا من المذابح.

ولاننا نؤمن بان تعاطي الجمهور للفن، شأن أي تعاط اخر، هو حافز فعال لتطور الانتاج الفني لاحقا، فاننا نرى في العنف الذي تصوره السينما، وهو يعكس الواقع بشكل مشوه، لايمكن ان يخدم هذا الجمهور، فهو يتعامل معه كونه مستهلكا فقط، وهذا لايدع للسينما ان تؤكد خاصيتها كفن ولا تعود لها أي قيمة جمالية.

الفنون تتقدم بغير انتظام نحو الكمال، لكن مصير السينما (كفن) يبدو غامضا-مع التغييرات التقنية التي اثرت على ملامحه، فالعنف- مثلا- في افلام اليوم يجرد الافلام، التي تضمنت العنف بطريقة مغايرة، من امكانياتها التعبيرية ولايدع منها سوى هيكل بدائي ساذج.

وهذا التخريب المستمر للذائقة السينمائية وهيمنة المال وسيطرة البلاهة يمنع السينما من ان تسير نحو (كمالها)، واذا رأينا مع (رينيه كلير): ان السينما تعيش تحت تأثير النسبي، أي ان الافكار والاثار التي توحي بها تمر سريعاً، فهل ستتجاوز السينما في مراحلها القادمة، هذه الوسيلة وتتخلص من هذا التوجه (النفاية الروحية) بان تستهلك؟ ام مع غياب الافكار الجديدة الجريئة والاصيلة والمبادئ الانسانية سيغدو هذا الامر واقعا؟.

سنراهن-لاننا نؤمن بمستقبل هذا الفن-على ان هذا الزيف كله لايلبث ان يتلاشى وسرعان ماتستعيد السينما مكانتها، وحتى عندما يتم تصوير القبح والبشاعة والموت فانه سيتم بشكل رائع.

تقيمه جمعية الفنون البصرية في العراق:

مهرجان للأفلام العراقية القصيرة

المدى الثقافي

تتواصل الاستعدادات في جمعية الفنون البصرية لاقامة مهرجان العراق الدولي الاول للافلام القصيرة الذي سينعقد في الرابع والعشرين ويستمر حتى التاسع والعشرين من ايلول المقبل... ويجيء هذا المهرجان في سياق الاهمية التي تحظى بها السينما في حياة الشعوب عامة، والافلام القصيرة التي تتسم بطابعها الفني والثقافي خاصة، ولقربها من الفنانين الشباب الذين يشكلون دعامة المستقبل..

ويهدف المهرجان الى التعريف بالافلام القصيرة والوثائقية وبصانعيها من مخرجين ومنتجين لكون هذه الافلام ومبدعيها لايحظون بالدعم المناسب على الرغم من اهميتها، وبأنها تنتج خارج أطر الانتاج التجاري والتقليدي.. وتوفير مساحة لقاء وحوار وتبادل ثقافي للسينمائيين العراقيين فيما بينهم ومع نظرائهم من دول العالم... وتأسيس فرص لتعاون محلي ودولي للانتاج المشترك على مستوى السينما والثقافة السينمائية... والانفتاح بالتجارب والانجازات العراقية على العالم من خلال عرض الافلام الفائزة خارج العراق وفي المهرجانات الدولية... وتعضيد التجارب السينمائية العراقية الرائدة وتكريم الكفاءات السينمائية الفاعلة في المشهد السينمائي العراقي.. وفسح المجال للتطلعات الانتاجية للبحث عن سبل ووسائل التمويل السينمائي محلياً وعالمياً... ولعل من الامور المهمة التي انطوى عليها هذا المهرجان ان الجهة المنظمة له استفادت وتحصل للمرة الاولى في العراق- من المؤسسات الاوروبية الاستشارية في وضع ستراتيجيات التمويل والرعاية للمهرجانات المشابهة اضافة للاتصالات المحلية بعدد من الجهات الراعية وستحمل مطبوعات المهرجان شعارات وعناوين وتخصصات هذه الجهات كما ستخصص لها صفحة في الموقع الالكتروني الخاص بالمهرجان..

ويتضمن البرنامج العام للمهرجان: إفلام المسابقة الرسمية والافلام خارج المسابقة وافلام البلد الضيف والافلام التي تعرض خلال برنامج التكريم السينمائي مع اقامة معرض وثائقي عن السينما العراقية تجمع فيه اكثر من مائة صورة وثائقية عن تأريخ الفيلم الوثائقي لاسيما بعد الدمار والتخريب الذي تعرضت له الثقافة العراقية وفقدان معظم الوثائق الخاصة بالسينما... اضافة الى جولة سياحية لضيوف المهرجان...

أما شروط المشاركة بالمسابقة الرسمية في هذا المهرجان الذي ستكون افلام المسابقة الرسمية في دورته هذا العام فقط للافلام العراقية بسبب الاوضاع الراهنة عل امل أن تكون في الدورات المقبلة مفتوحة لجميع الترشيحات بما فيها مشاركة السينمائيين العراقيين في الداخل والخارج فتتضمن: تقدم الراغب بالمشاركة بطلب رسمي بحسب الاستمارة الخاصة بالمشاركة ولاتتحمل ادارة المهرجان اية اجور او تكاليف مترتبة على شحن وارسال المواد الفيلمية.. وان يرفق مع نسخة الفيلم ملصق وصورة للمخرج او المنتج او اية صورة او تفاصيل ذات فائدة اعلامية للفيلم مع موجز عن فكرته بما لايزيد عن ثمانية أسطر باللغة العربية او الانكليزية.. ولادارة المهرجان حق الاحتفاظ بنسخة الفيلم المشارك ضمن ارشيفها الخاص كما ان لها الحق بعرض مقاطع من الفيلم على شاشات التلفزيون الارضية والفضائية على سبيل الدعاية للمهرجان... وتخضع الافلام الى تقييم لجان فنية متخصصة لتحديد صلاحيتها للدخول في المسابقة او في اقسام المهرجان الاخرى.

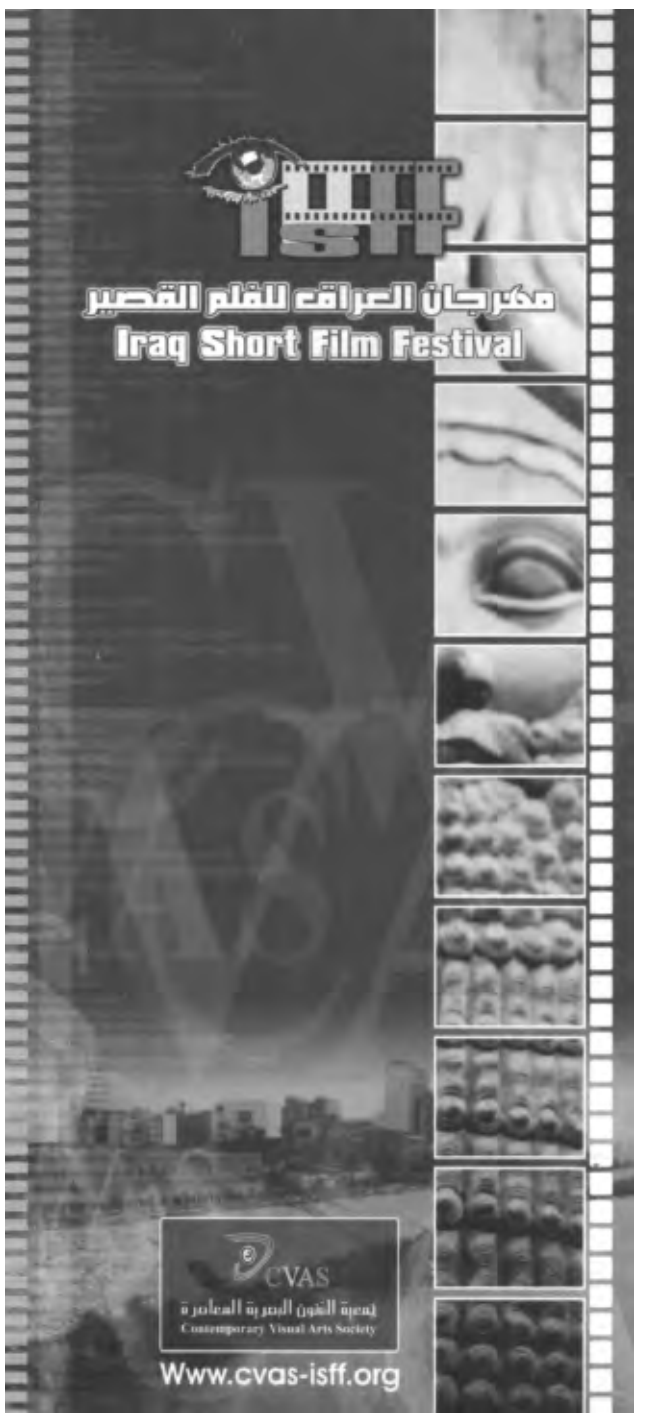

فيلم (باب المقام)

(ملص) يتقصى العادات الاجتماعية الخاطئة ليطلق منها حياة بلا قيود

عمان / محيي المسعودي

(باب المقام) فيلم سوري فرنسي مشترك انتج عام ٢٠٠٤ ومدته ساعة و٣٨ دقيقة عرض لاول مرة على الجمهور (منذ ايام) في عمان ضمن مهرجان الفيلم العربي الفرنسي اخرج الفيلم السوري محمد ملص وتم تصويره بالكاميرا (الديجتل) وتحول الى السينما ويعد الفيلم السوري الاول كانتاج حر غير خاضع لسياسة الدولة، كما يقول مخرجه، ويضيف قائلا: ان الفيلم بادرة لتشجيع انتاج هكذا افلام وانه سوف يشارك في مهرجانات عديدة وقد سبق عرضه على الصحفيين في عرض خاص كما انه يشارك في مهرجان الحب السينمائي في مونس-بلجيكا. ان مايثير الانتباه في الفيلم هو تلك الموضوعة والشخوص اللتان يتناولهما ملص في افلامه بشكل عام، فالرجل لديه قاس.. ظالم.. والمرأة ضحية، هذه الصورة وجدناها في فيلم عرض له في مؤسسة عبد الحميد شومان منذ أشهر والتي تمثلت بزوجة تعود بأطفالها لأبيها البخيل الجلف الذي يرفض استقبالها لولا التدخلات من قبل الغير وتذوق المرأة-ابنة الرجل البخيل- الويل هي واطفالها من قبل ابيها القاسي سيئ الطبع، والى جانب هذا الموضوع كان الموضوع السياسي الخاص بالقومية والوحدة والاحلام التي اجهضتها الاحداث، وخاصة أحداث العراق الاخيرة، هذه الصورة وجدناها بشكل اخر في فيلمه- باب المقام- آنف الذكر، وجدنا ايمان الشابة المتزوجة من سائق تكسي والمغرمة بالموسيقى والغناء وخاصة اغاني أم كلثوم، ايمان تربي ابنة أخيها الطفلة الصغيرة والتي يرزح ابوها في السجن لاسباب سياسية-يرفضها الجميع لانها تريد تغيير السلطة في البلاد.

وهنا تبرز لنا شخصية الرجل القاسي الذي يتناوله (ملص) في معظم افلامه هذه الشخصية هي (ابو صبحي) عم ايمان الذي يتعامل مع الاخرين من اهله كالعبيد الكل يقبل يده ويجله ولايرد له طلباً، رجل خشن جلف يطبق عادات اجتماعية بالية تحت مسميات اجتماعية، ومن هنا تبدأ مشكلة ايمان حيث ياخذ منها ابو صبحي (هذا) ابنة اخيها الصغيرة-عنوة ولا يستجيب لتوسلاتها وبكائها، ولا احد يستطيع رده حتى اخوه ابو ايمان الذي يقع اسير ثقته بأبي صبحي، هذه الحادثة تسبب تصاعد الانفعالات لدي ايمان التي يزداد عناؤها فتدندن مع نفسها وتقلد المطربين وتذهب للبحث عن أشرطة غنائية لمطربين كبار، وخاصة ام كلثوم، وفي محل لبيع الاشرطة تلتقي بمطربة سورية قديمة ذات صوت شجي وقد سبق لها وغنت ذات يوم في عرس ام ايمان وهي تعرفها جيدا ومن هنا تتوثق العلاقة بين هذه المطربة وايمان وتتوالى زيارات ايمان لها بينما يرتفع غليان النفوس على حديث ابو صبحي الهادر ومتابعاته الدائمة لحركات ايمان وقد كلف اخاها بالمراقبة التي ادت في النهاية الى قتل ايمان من قبل عمها.

وفي ثنايا لفيلم نراقب قسوة التربية الاجتماعية الشامية على الجيل الجديد والاسلوب الذي لم يعد مناسبا، بعد هذه الصورة ومقارنتها بصور افلام ملص ندرك النهج الذي يسير عليه وكأني به مبدعا يتبنى مشروعا لايتوقف عن اكماله ابدا، والمشروع هو استظهار وادانة السلوك الاجتماعي البائد الذي لايناسب العصر والكشف عن الاحلام السياسية الوطنية والقومية واحباطاتها، ولكن هذه المعالجة من جانب اخر تبدو وكأنها قائمة على رؤية غربية علمانية للحياة وليس على اسس او ثوابت هوية عربية او اسلامية، ويكون الطرح - عادة - بين متناقضين يختار ملص السلوك الاجتماعي الخاطئ لدى المجتمع ويقيم عليه طريقا لتمرير سلوك معاصر يتناقض بشكل صارخ مع الثوابت لكي يضمن تعاطف الجمهور مع فكرته من خلال الاجماع على ادانة القسوة والبخل والقتل والقدح الاعمى... في حين تكون الموضوعة في الطرف الاخر هي المتعة التي تتمثل بالحرية الشخصية-سلوكا-او ممارسة في فن ما كالغناء.

ومن ينظر الى تلك الافلام التي يقدمها ملص يجد انها صرخة مدوية ضد الاضطهاد والظلم الاجتماعي والسياسي في المنطقة العربية، وخاصة سوريا-على اعتبارها بلد المخرج-وهو امر ممدوح جدا ولكنه بالمقابل دعوة صريحة لممارسة حياة بلا قيود لا تجد في الثقافة العربية والاسلامية مكانا لها-ولا تستوعبها الا ثقافة العصر الغربية تحديدا.. واظن ان ملص ينطلق من رؤية اجتماعية فنية، الاجتماعية تأتي من حياته الخاصة يستحضرها في لحظات التداعي للخلف، وخاصة على الطفولة، وما بعدها، اما الفنية فهي مبنية على تقنيات وثقافة العصر التي يعيشها في الغرب، وهذان الاتجاهان التقيا في ذات المخرج ملص ليكونا رؤيته الاخراجية ويحددا هوية موضوعاته واعماله بشكل عام.